بسم الله الرحمن الرحيم

التفسير التربوي من كتاب

تفسير التحرير والتنوير

للإمام محمد الطاهر ابن عاشور

آيات البشرى نموذجا

إعداد

د/ محمد بن أحمد الهاشم

عميد كلية المجتمع بجامعة شقراء

المملكة العربية السعودية

2014م

التمهيد :

الحمد لله الذي أنزل الكتاب على عبده ولم يجعل له عوجا(1) , والشكر له سبحانه الذي نزَّل كتابه بشيرا ونذيرا بلسان عربي مبين , والصلاة والسلام على من أثنى عليه ربه فقال : { إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ....الآية 119 البقرة } صلى الله عليه وعلى آله الأطهار وصحبه الأخيار , وعلى من تبعه واقتدى بسنته إلى يوم الدين 000 وبعد ,

فكم أسعدني وشرفني أن أشارك في هذا المؤتمر الذي ارتفع شأنه وعلا قدره لانتسابه إلى كتاب الله عز وجل , وكم هي من لحظات سعيدة ينشرح فيها الصدر ويطمئن القلب بصحبة كوكبة من أهل العلم والفضل خدمة كتاب الله , والداعين إليه بالحكمة والموعظة الحسنة , فشكرا لله وحمدا على هذه النعمة العظيمة , ثم دعاءٌ خالص من قلب محب لإخواننا الكرام في جامعة ملايا بدولة ماليزيا اللذين حملوا لواء هذا الشرف فنظموا واجتهدوا وأعدّوا واستعدّوا , فجزاهم الله خيرا وأكرمهم , وأجزل لهم المثوبة , والله أسأل أن يبارك لنا في بلادنا الثانية ماليزيا وأن يعمرها بما فيه نفع البلاد والعباد وأن يوفق قادتها وشعبها لكل خير وبر وصلاح .

---

(1) الآية (1) من سورة الكهف .

يهدف هذا البحث إلى : إبراز الجانب التربوي من ثنايا تفسير التحرير والتنوير للإمام محمد الطاهر ابن عاشور , مع العناية والتأكيد على المنهج القرآني العظيم في أسلوب التبشير , وأثره المباشر والمؤثر والمتجدد في مجال التربية مهما تنوعت الوسائل , وتعددت الطرائق فإن ما فطرت عليه النفوس , وجبلت عليه الطبائع حب البشائر , والتطلع للفوز بها , والظفر بنتائجها , ويظهر لي أن محتوى بحثي داخل ضمن المحور الثالث من محاور هذا المؤتمر الكريم وهو : التجديد في علوم القرآن الكريم والتفسير وأثرهما عند القدامى والمحدثين , حيث أنه يبرز جانبا مهما في علم التفسير التربوي , سيظهر هذا جلياً ضمن محتوى البحث الذي وضعت خطته على النحو الآتي :

المقدمة

الفصل الأول وفيه مبحثان :

المبحث الأول وفيه مطلبان :

المطلب الأول : معنى التفسير لغة واصطلاحا .

المطلب الثاني : معنى التربوي لغة واصطلاحا .

المبحث الثاني وفيه مطلبان :

المطلب الأول : لمحة تعريفية بكتاب التحرير والتنوير .

المطلب الثاني : نبذة موجزة عن الإمام محمد الطاهر ابن عاشور .

الفصل الثاني : وفيه أربعة مباحث :

المبحث الأول : الجانب التربوي في ألفاظ البِشارة .

المبحث الثاني : الجانب التربوي في أسلوب المبشِّرين .

المبحث الثالث : أثر البشارة تربويا على المبشَّرين .

المبحث الرابع : الأثر التربوي للمبشَّر به ترغيبا في نفوس المبشَّرين .

الخاتمة .

الفصل الأول

معنى التفسير التربوي

والتعريف بتفسير التحرير والتنوير

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : وفيه مطلبان

المطلب الأول : معنى التفسير لغة واصطلاحاً .

المطلب الثاني : معنى التربوي لغة واصطلاحاً .

المبحث الثاني : وفيه مطلبان

المطلب الأول : لمحة تعريفية عن تفسير التحرير والتنوير .

المطلب الثاني : نبذة موجزة عن الإمام محمد الطاهر ابن عاشور .

المبحث الأول :

المطلب الأول : معنى التفسير لغة واصطلاحاً

التفسير في اللغة : مأخوذ من الفَسْر وهو الإيضاح والتبيين(1) ومنه قوله تعالى { ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا 33 } الفرقان .

((مصدر فسَّر بتشديد السين , والفسر الإبانة والكشف لمدلول الكلام ومعناه))(2) .

وفي الاصطلاح : علم يعرف به فهم كلام الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم , وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه(3) , وعرفه ابن عاشور فقال : اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن وما يستفاد منها باختصار أو توقع(4) .

---

(1) انظر : لسان العرب مادة (فسر) 55/5

(2) انظر : تفسير التحرير والتنوير 10/1

(3) البرهان في علوم القرآن 13/1

(4) التحرير والتنوير 11/1

المطلب الثاني :

معنى التربوي لغة واصطلاحاً

التربوي لفظة مشتقة من كلمة (ربّ , ربَبَ) ولها معان عديدة , فتأتي بمعنى الإصلاح , والزيادة , والسياسة (ربُّ القوم سادهم وكان فوقهم), والمُلك (رَبُّ الشيء ملكه) , والإقامة (رَبَاب المكان : أقام) , والدوام (أرَّبت السحابة دام مطرها)(1) .

ولعل أقرب المعاني اللغوية لموضوع البحث هو الإصلاح والزيادة .

وإذا كانت لفظة التربوي مشتقة من التربية ولأن موضوع بحثنا التفسير التربوي , فجميل أن نعرِّف التربية من منظور قرآني , فقد ذكر ابن عاشور في تفسير قوله تعالى { رب العالمين 2 } الفاتحة ((التربية تبليغ الشيء إلى كماله تدريجياً))(2) وإذا نسبنا كلمة التربوي إلى التفسير فإن مدلولها الإصطلاحي سيؤول إلى المعنى المستنبط من تفسير وبيان الآية القرآنية , والمندرج ضمن المنهج القرآني في تربية المخاطبين .

قال ابن عاشور في تفسير قوله تعالى { ولكن كونوا ربانيين...... الآية } 79 آل عمران ((أي كونوا منسوبين للرب وهو الله تعالى لأن النسب إلى الشيء إنما يكون لمزيد اختصاص المنسوب بالمنسوب إليه , والرباني نسبة إلى الرب على غير قياس كما يقال , اللحياني لعظيم اللحية , والشعراني لكثير الشعر))(3).

---

(1) أنظر مادة (رب) في معجم مقاييس اللغة 381/2 , بصائر ذوي التمييز 29/2 مادة ربب في لسان العرب 401/1 .

(2) التحرير والتنوير 166/1 .

(3) التحرير والتنوير 295/3 .

المبحث الثاني , وفيه مطلبان :

المطلب الأول : لمحة تعريفية عن تفسير التحرير والتنوير

وخير تعريف لهذا التفسير أن نذكر ما كتبه عنه مؤلفه – رحمه الله تعالى - فقد ذكر في مقدمة تفسيره الآتي : ((فجعلت حقاً علي أن أبدي في تفسير القرآن نكتا لم أر من سبقني إليها , وأن أقف موقف الحكم بين طوائف المفسرين تارة لها وآونة عليها , فإن الإقتصار على الحديث المعاد , تعطيل لفيض القرآن الذي ما له من نفاد ولقد رأيت الناس حول كلام الأقدمين أحد رجلين رجل معتكف فيما شاده الأقدمون وآخر آخذ بمعوله في هدم ما مضت عليه القرون , وفي كلتا الحالتين ضرٌ كثير وهنالك حالة أخرى ينجبر بها الجناح الكسير , وهي أن نعمد إلى ما أشاده الأقدمون فنهذبه ونزيده , وحاشا أن ننقضه ونبيده , علماً بأن غمض فضلهم كفران للنعمة وجَحْدَ مزايا سَلَفِها ليس من حميد خصال الأمة , فالحمد لله الذي صدّق الأمل ويسر إلى الخير ودلّ 000 وقد ميزت ما يفتح الله لي من فهم في معاني كتابه وما أجلبه من المسائل العلمية , مما لا يذكره المفسرون , وإنما حسبي في ذلك عدم عثوري عليه فيما بين يديّ من التفاسير في تلك الآية خاصة 000

وقد اهتممت في تفسيري هذا ببيان وجوه الإعجاز ونكت البلاغة العربية , وأساليب الاستعمال واهتممت أيضاً ببيان تناسب اتصال الآي بعضها ببعض 000 ولم أغادر سورة إلا بينت ما أحيط به من أغراضها لئلا يكون الناظر في تفسير القرآن مقصوراً على بيان مفرداته ومعاني جمله كأنها فقر متفرقة تصرفه عن روعة انسجامه , وتحجب عن روائع جماله .

واهتممت بتبيين معاني المفردات في اللغة العربية بضبط وتحقيق مما خلت عن ضبط كثير منه قواميس اللغة , وعسى أن يجد فيه المطالع تحقيق مراده , ويتناول منه فوائد ونكتاً على قدر استعداده , فإني بذلت الجهد في الكشف عن نكت من معاني القرآن وإعجازه خلت عنها التفاسير , ومن أساليب الاستعمال الفصيح ما تصبو إليه همم النحارير بحيث ساوى هذا التفسير مطولات القماطير ففيه أحسن ما في التفسير , وفيه أحسن مما في التفاسير .

وسميته ((تحرير المعنى السديد , وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)) واختصرت هذا الاسم باسم ((التحرير والتنوير من التفسير))(1) وقد بدأه بمقدمات عشر لتكون عوناً للباحث في التفسير , وفيها الكثير من علوم القرآن , ومفاتيح لفهمه وتدبره .

---

(1) التحرير والتنوير 1/7-9 .
ومن الجدير بالذكر أن كتابه هذا أحب كتبه إلى قلبه , فقد مكث في تأليفه تسعاً وثلاثين سنة وستة أشهر بدأ فيه سنة 1341هـ , وانتهى منه عصر يوم الجمعة الثاني عشر من شهر رجب عام ثمانين وثلاثمائة وألف .

المطلب الثاني : نبذة موجزة عن الإمام محمد الطاهر ابن عاشور .

لطائف من سيرة العلامة الشيخ الطاهر بن عاشور – رحمه الله – (1)

هو العلامة الشيخ محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور , ولد في ضاحية المرسى في تونس سنة 1296 هـ وقيل 1297 هـ بقصر جده للأم الصدر الوزير محمد العزيز بو عتور .

وقد شب في أحضان أسرة علمية , ونشأ بين أحضان والد يأمل أن يكون على مثال جده في العلم والنبوغ والعبقرية , وفي رعاية جده لأمه الوزير الذي يحرص على أن يكون خليفة في العلم والسلطان والجاه .

تلقى العلم كأبناء جيله , حيث حفظ القرآن , واتجه إلى حفظ المتون السائدة في وقته , ولما بلغ الرابعة عشرة التحق بجامع الزيتونة سنة 1310 , وشرع ينهل من معينه في تعطش وحب للمعرفة , ثم برز ونبغ في شتى العلوم سواء علوم الشريعة , أو اللغة , أو الآداب أو غيرها , بل والطب , وإتقان الفرنسية , فكان آية في ذلك كله .

له مؤلفات عديدة في شتى الفنون , منها تفسيره المسمى بالتحرير والتنوير ومقاصد الشريعة , وأصول النظام الاجتماعي في الإسلام , وكشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ , وردٌّ على كتاب الإسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرزاق , وأصول التقدم في الإسلام , وأصول الإنشاء والخطابة , وأليس الصبح بقريب , وغيرها الكثير سواء كان مطبوعاً أو محفوظاً .

وكان ذا عقل جبار وذا تدفُّق وتدفُّع في العلم , فكأنه إذا كتب في أي فن أو موضوع يغرف من بحر , وينحت من صخر , فإذا رأيت عنوان الموضوع الذي يريد الكتابة فيه قلت : ماذا سيقول ؟ فإذا قرأت ما تحته رأيت العجب العجاب , لهذا فإنك تحتاج وأنت تقرأ له أن تحضر ذهنك , ولا تتشاغل عنه .

وكان ذا أسلوب محكم النسيج , شديد الأسر , يذكر بأرباب البيان الأوائل .

وكان إذا كتب استجمع مواهبه العلمية , واللغوية , والأدبية , والاجتماعية والتاريخية , والتربوية وغيرها لخدمة غرضه الذي يرمي إليه .

---

(1) من موقع ملتقى أهل التفسير من مقالة طويلة بعنوان : لطائف من سيرة العلامة الشيخ الطاهر بن عاشور رحمه الله للدكتور : محمد بن إبراهيم الحمد

ولهذا فلا غرو أن تجد في كتاباته عن أي موضوع : القصة , والحادثة التاريخية , والنكتة البلاغية , والمسألة النحوية , والأبيات الشعرية , والمقاصد الشعرية , والمناقشة الحرة , والترجيح والموازنة .

كل ذلك بأدب عالٍ , وأسلوب راق , ونفس مستريض , فتشعر إذا قرأت له هذا البحث كتبه مجموعة من المتخصصين في فنون شتى .

توفي – رحمه الله – يوم الأحد 13 رجب 1393 هـ وقد عُمِّر سبعاً وتسعين سنة .

وقد تولى مناصب علمية وإدارية بارزة كالتدريس , والقضاء , والإفتاء , وعضويات المجامع العلمية وغيرها .

(هو أوَّل من سُمِّي شيخاً للجامع الأعظم سنة (1351 هـ - 1932 م) ليتولَّى الإصلاحات العلمية والتعليمية , فكان أوَّلُ شيخ لإدارة التعليم بجامع الزيتونة عوضاً عن النظارة (1) التي كانت هي المسيَّرة للتعليم به) .

(وهو أوَّل من أدخل إصلاحات تعليمية وتنظيمية في الجامع الزيتوني في إطار منظومة تربوية فكرية , صاغها في كتابه : (أليس الصبح بقريب) الذي ألّفه في بواكير حياته , والذي يدل على عقلية تربوية فذة , والذي كان شاهداً على الإصلاح التربوي والتعليمي الشرعي المنشود) .

وبعد التأمل في سيرة ذلكم الإمام العلامة رحمه الله يتضح لنا الآتي :

***تربى وشب في أحضان أسرة علمية .**

***بروزه ونبوغه في علوم شتى منها اللغة والآداب وعلوم الشريعة .**

***ممارسته للتعليم والتدريس .**

***اهتمامه بالإصلاحات التعليمية والتنظيمية .**

***استشعاره بأعباء الأمانات العامة التي تحملها ومنها إدارة التعليم .**

كل هذا ونحوه يؤكد اهتمامه وعنايته بالجانب التربوي والتعليمي وهذا بلا شك انعكس على فكره وظهر في أقواله وأفعاله , ومن باب الأولى يتجلى في تأليفه قرابة الأربعين سنة .

---

(1)هي الهيئة المشرفة على التعليم .

الفصل الثاني وفيه أربع مباحث

المبحث الأول : الجانب التربوي في ألفاظ البشارة .

المبحث الثاني : الجانب التربوي في أساليب المبشِّرين .

المبحث الثالث : أثر البشارة تربوياً على المبشَّرين .

المبحث الرابع : الأثر التربوي للمبشَّر به ترغيباً وترهيباً في نفوس المبشَّرين .

تمهيد :

يختص هذا الفصل بالبحث والتمحيص والاستنباط في آيات البشرى والنظر في سياقها , وتأمل ما ذكره المفسر بن عاشور في تفسيرها , لذا يحسن أن أنبِّه على أن المراد بآيات البشرى كل آية ذكرت لفظ بَشَّر تصريحاً بتشديد الشين وكسرها وسكونها ومشتقاته وأحصر الألفاظ حسب ورودها في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم وذلك على النحو الآتي :

أبَشَّرتموني , بشَّرناك , بَشَّرناه , فبشَّرناها , بشَّروه , لِتُبَشِّر , تُبَشِّرون , نُبَشِّرك يُبَشِّر , يُبَشِّرُك , يُبَشِّرُهُم , بَشِّر , بَشِّره , بَشِّرهم , بُشِّر , أبْشِروا , يستبشِرون فاستبشروا , بشْرى , بشْراكم , بشير , بشيراً , مبشِّراً , مبشِّرين , مبشِّرات مستبشرة , ⁽¹⁾ وهذه الألفاظ تكرر ورودها في أربع وثمانين آية , أما لفظ بَشَر بفتح الباء والشين فلم أذكره لاختلافه عن موضوع البحث .

كما أنه لا يمكن استيعاب جميع الآيات لتقييد البحث في عشرين صفحة , ولكن ستذكر نماذج تكفي – بعون الله – لتحقيق المراد , والله المستعان .

---

(1)المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم 146-147

المبحث الأول : الجانب التربوي في ألفاظ البشارة .

البِشَارة أصلها من البِشْر وأهل اللغة يفصلون في هذه المادة تفصيلاً دقيقاً وواسعاً وسأقتصر في عرض معانيها على ما يتعلق بموضوع بحثنا , فَبَشَرْ بفتح الباء والشين هي : الخَلقْ يقع على الأنثى والذكر والواحد والإثنين .

والبَشَرَة : أعلى جلدة الرأس والوجه والجسد من الإنسان وهي التي عليها الشعر ومن معاني بشر قول الأصمعي : رجل مُؤْدَمٌ مُبْشَرْ وهو الذي جمع ليناً وشدة مع معرفة بالأمور , قال : وأصله من أَدَمَةِ الجِلِد وبَشَرَتِه , فالبَشَرَةُ ظاهره وهو منبت الشعر , والأَدَمَةُ باطنه وهو الذي يلي اللحم , وفي الصحاح فلان مُؤْدَمٌ مُبْشَر إذا كان كاملاً من الرجال , وامرأة مُؤْدَمَةٌ مُبْشَرَة تامة في كل شيء , وفي حديث نجية : ابْنَتُكِ المُؤْدَمَةُ المُبْشَرَة (1) يصف حسن بشرتها وشدتها , وأَبْشَرَت الأرض إذا أخرجت نباتها , ومُبَاشَرَةُ الأمر أن تحضره بنفسك وتليه بنفسك , والبِشْر الطلاقة وقد بَشَّره بالأمر يُبَشِّره بالضم بَشْراً وبُشُوراً وبُشْراً وبَشَّره به بِشراً , يقال : بَشَّرته فأبْشَر واستبشر وبَشَّر وبَشِر : فرح , والبِشَارة المطلقة لا تكون إلا بالخير وإنما تكون بالشر إذا كانت مقيدة , والإسم البشارة والبشارة بالكسر والضم , يقال : بشرته بمولود فأبشر إبشاراً أي سُرْ , وبشرني فلان بوجه حسن أي لقيني , وهو حَسَنُ البِشر , بالكسر أي طلق الوجه , والبِشَارة ما بُشِّرت به , أو ما يعطاه المُبَشِّر بالأمر كما في حديث توبة كعب : فأعطيته ثوبي بشارة (2) .

---

(1) النهاية في غريب الأثر , باب الباء مع الشين .

(2) النهاية في غريب الأثر لابن الجزري , باب الباء مع الشين / وأصل الحديث في صحيح مسلم كتاب التوبة باب حديث توبة كعب وصاحبيه رقم 2769

والبشير الذي يبشر القوم بأمر خير أو شر , وبشرى بمعنى بشارة , قال الزجاج : معنى يُبَشِّرك يَسُرُّك ويُفْرِحُك , وأصل هذا أن بشرة الإنسان تنبسط عند السرور والبشارة بالفتح الجمال والحسن , ورجل بشير الوجه إذا كان جميله , وامرأة بشيرة , ووجه بشير : حسن , وأَبْشَرَ الأمرُ وَجْهَه حَسَّنَه ونَضَّره (1) وبعد هذا العرض المفصل لبعض معاني البشارة ومشتقاتها , ودلالاتها اللغوية يتضح الآتي :
* أن للبشارة أثراً مباشراً حِسَّياً يظهر على الإنسان فيتأثر له ويتفاعل مع البشارة بظهور علائم الفرح والسرور على وجهه , وفي المعاني اللغوية ما دلَّ على هذا المعنى باشتقاق البشارة من البشرة وهي ظاهر الجلد , وإلى هذا المعنى أشارت الآية في قوله تعالى { الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون 48} الروم .

*من جميل معاني ألفاظ البشارة أنها مشتقة من بشر وهم الخلق , فالبشارة لغة عالمية يحبها الناس جميعاً , وقد وصف الله بها رسله عليهم الصلاة والسلام فقال { رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما 165} النساء , ووصف نبيه محمد صلى الله عليه وسلم خاصة فقال { يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا 45} الأحزاب , قال ابن عاشور في تفسيرها : ((والمبشر : المخبر بالبشرى والبشارة , وهي الحادث المسر لمن يخبر به والوعد بالعطية , والنبي صلى الله عليه وسلم مبشر لأهل الإيمان والمطيعين بمراتب فوزهم , وقد تضمن هذا الوصف ما اشتملت عليه الشريعة من الدعاء إلى الخير من الأوامر وهو قسم الامتثال من قسمي التقوى , فإن التقوى امتثال المأمورات واجتناب المنهيات , والمأمورات متضمنة النصائح فهي مقتضية بشارة فاعليها بحسن الحال في العاجل والآجل , وقدمت البشارة على النذارة لأن

---

(1) لسان العرب حرف الباء مادة (بشر)

النبي صلى الله عليه وسلم غلب عليه التبشير لأنه رحمة للعالمين , ولكثرة عدد المؤمنين في أمته (1) .

*ومن الجوانب التربوية لألفاظ البشارة كونها تكسب صاحبها والمتحلي بها وضاءة الوجه , وجمال المحيا , وبهاء الطلعة فيصبح محبوباً عند الناس ويشتاقون لرؤياه ومقابلته قال الله تعالى في وصف أهل الجنة { وجوه يومئذ مسفرة 38 ضاحكة مستبشرة 39 } عبس .

قال ابن عاشور في تفسيرها : ((والمسفرة ذات الإسفار , والإسفار النور والضياء يقال : أسفر الصبح إذا ظهر ضوء الشمس في أفق الفجر , أي وجوه متهلله فرحاً وعليها أثر النعيم , و { ضاحكة } أي كناية عن السرور , و { مستبشرة } معناه فرحة , والسين والتاء فيه للمبالغة مثل : استجاب , ويقال بشر أي فرح وسُر (2)

---

(1) التحرير والتنوير 53/22

(2) التحرير والتنوير 30/137-138

المبحث الثاني : الجانب التربوي في أساليب المبشِّرين

بعد استعراض آيات البشرى في كتاب الله تعالى وجدت أن من أسند إليه التبشير مع ذكر المُبَشَّر به هم : الله عز وجل , الرسل عليهم الصلاة والسلام ,الملائكة عليهم السلام الذين أرسلوا إلى إبراهيم وإسحاق وزكريا ومريم عليهم الصلاة والسلام بصفة خاصة , رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم , وبشير نبي الله يعقوب عليه السلام , وصاحب القافلة عندما وجد يوسف عليه السلام بالبئر .

وقد أسند الله لنفسه التبشير فقال عز من قائل { ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات 0000الآية 23} الشورى , ونظير هذه البشارة ما ورد في قوله تعالى { والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى فبشر عباد 17 الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب 18 } الزمر , قال ابن عاشور في تفسيرها : ((لما انتهى تهديد المشركين وموعظة الخلائق أجمعين ثني عنان الخطاب إلى جانب المؤمنين فيما يختص بهم من البشارة مقابلة لنذارة المشركين 000 والبشرى : البشارة , وهي الإخبار بحصول نفع 000 والمراد بها هنا : البشرى بالجنة 000 وفرع على قوله { لهم البشرى } قوله { فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه } وهم الذين اجتنبوا الطاغوت , فعدل عن الإتيان بضميرهم بأن يقال : فبشرهم , إلى الإظهار باسم العباد مضاف إلى ضمير الله تعالى , وبالصلة لزيادة مدحهم بصفتين

أخريين وهما : صفة العبودية لله , أي عبودية التقرب , وصفة استماع القول واتباع أحسنه 000 والتعريف في (القول) تعريف الجنس , أي يستمعون الأقوال مما يدعو إلى الهدى مثل القرآن وإرشاد الرسول صلى الله عليه وسلم , ويستمعون الأقوال التي يريد أهلها صرفهم عن الإيمان من ترهات أئمة الكفر فإذا استمعوا ذلك اتبعوا أحسنه وهو ما يدعوا إلى الحق 000 وفي الموصول إيماء إلى أن اتباع أحسن القول سبب في حصول هداية الله إياهم , وجملة { أولئك الذين هداهم الله } مستأنفة لاستدعاء الذهن لتلقي هذا الخبر , وأكد هذا الاستدعاء بجعل المسند إليه اسم إشارة ليتميز المشار إليهم .

أكمل تميزه مع التنبيه على أنهم كانوا أحرياء بهذه العناية الربانية لأجل ما اتصفوا به من الصفات المذكورة قبل اسم الإشارة وهي صفات اجتنابهم عبادة الأصنام مع الإنابة إلى الله واستماعهم كلام الله واتباعهم إياه نابذين ما يلقي به المشركون من أقوال التضليل 000وقد دل ثناء الله على عباده المؤمنين الكُمَّل بأنهم أحرزوا صفة اتباع أحسن القول الذي يسمعونه على شرف النظر والاستدلال للتفرقة بين الصواب والخطأ , ولغلق المجال في وجه الشبهة , ونفي تلبس السفسطة 0000 ومما يتبع ذلك انتقاء أحسن الأدلة وأبلغ الأقوال الموصلة إلى المقصود بدون اختلال ولا اعتلال بتهذيب العلوم ومؤلفاتها فقد قيل : خذوا من كل علم أحسنه أخذاً من قوله تعالى هنا { الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه } (1)

(1) التحرير والتنوير 367-365/23

ويلاحظ توسع ابن عاشور في تفسير الآية والاهتمام بالجوانب الإصلاحية , طريق الهداية مما يؤكد عنايته بتربية الأنفس وتزكيتها .

ومن الجوانب التربوية من أساليب المبشِّرين ما ورد في قوله تعالى عن بشارة الملائكة عليهم السلام لإبراهيم عليه السلام { إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال إنا منكم وجلون 52 قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم 53 قال أبشرتموني على أن مسني الكبر فبم تبشرون 54 قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين 55 قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون 56 } الحجر .

قال ابن عاشور في تفسيرها : ((وأما جملة { إنا نبشرك بغلام عليم } فهي استئناف كلام آخر بعد أن قدم إليهم القرى وحضرت امرأته فبشروه بحضرتها 000 والاستفهام في { أبشرتموني } للتعجب و { على } بمعنى : مع , دالة على شدة اقتران البشارة بمس الكبر إياه , والمس : الإصابة 000 وقد علم إبراهيم – عليه السلام – من البشارة أنهم ملائكة صادقون فتعين أن الاستفهام للتعجب 000 ثم نهوه عن استبعاد ذلك بأنه استبعاد رحمة القدير بعد أن علم أن المبشرين بها مرسلون إليه من الله فاستبعاد ذلك يفضي إلى القنوط من رحمة الله فقالوا { فلا تكن من القانطين } ذلك أنه لما استبعد ذلك استبعاد المتعجب من حصوله كان ذلك أثراً من آثار رسوخ الأمور المعتادة في نفسه بحيث لم يقلقه منها الخبر الذي يعلم صدقه فبقي في نفسه بقية من التردد في حصول ذلك فقاربت حاله تلك الذين ييأسون من أمر الله , ولما كان إبراهيم – عليه السلام – منزهاً عن القنوط من رحمة الله جاؤوا في موعظته بطريقة الأدب المناسب فنهوه عن أن يكون من زمرة القانطين تحذيراً له مما يدخله في تلك الزمرة , ولم يفرضوا أن يكون هو قانطاً لرفعة مقام نبوته عن ذلك 000 وقد ذكرته الموعظة مقاماً نسيه , فقال { ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون } وهو استفهام إنكار في معنى النفي , ولذلك استثنى منه { إلا الضالون } يعني أنه لم يذهب عن اجتناب القنوط من رحمة الله ولكنه امتلكه المعتاد فتعجب فصار ذلك كالذهول عن المعلوم , فلما نبهته الملائكة أدنى تنبيه تذكر)) (1) .

(1) التحرير والتنوير 58/14-60

المبحث الثالث : أثر البشارة تربوياً على المبشَّرين .

أعني بالمبشَّرين هنا ما ورد من تصريح البشارة مقترناً بهم كما في قوله تعالى { وبشر المخبتين 34} الحج , وقوله { وبشر المحسنين 37} الحج , وقوله تعالى { وبشر المؤمنين 13} الصف , وهذا الأثر العظيم للمبشرين غلب على آيات البشرى في القرآن , لأنهم هم المعنيون والمقصودون , وفيهم ورد سياق البشرى في حالين من أحوال الخلق الحال الأعم والأغلب استعماله للبشارة وهو الفرح والسرور , والحال الآخر استعمال الأول ولكنه للتهكم والسخرية ومزيد من العذاب النفسي , والترهيب كما في قوله تعالى { وبشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليما 138} النساء , وقوله { وبشر الذين كفروا بعذاب أليم 3} التوبة , وسأعرض لبعض ما ورد من أثر تربوي للبشارة على المبشرين كما في قوله تعالى { وبشر الصابرين 155} البقرة , قال ابن عاشور جملة { وبشر الصابرين } معطوفة على { ولنبلونكم } 000 وأفيد مضمون الجملة الذي هو حصول الصلوات والرحمة والهدى للصابرين بطريقة التبشير على لسان الرسول تكريماً لشأنه , وزيادة في تعلق المؤمنين به بحيث تحصل خيراتهم بواسطته , فلذلك كان من لطائف القرآن إسناد البلوى إلى الله بدون واسطة الرسول وإسناد البشارة بالخير الآتي من قبل الله إلى الرسول))(1) فنلحظ من تفسير ابن عاشور – رحمه الله – لطيفة تربوية في تحفيز المؤمن لزيادة محبة الرسول صلى الله عليه وسلم لتتحقق لهم البشارة .

فكلما عظمت المحبة زاد الإتباع له عليه السلام .

وفي قوله تعالى { وقدموا لأنفسكم واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين 223} البقرة , قال ابن عاشور : ((وقوله { بشر المؤمنين } تعقيب للتحذير بالبشارة والمراد المؤمنون الكاملون وهم الذين يسرون بلقاء الله كما جاء : من أحب لقاء الله أحب لقائه , وذكر هذه البشارة عقب ما تقدم إشارة إلى أن امتثال الأحكام المتقدمة من كمال الإيمان)) (2) وهنا إشارة تربوية محفِّزة للمؤمنين المبشَّرين للامتثال بأحكام الله تعالى .

وفي لفتة تربوية تُحَفِّزُ المؤمنين وتُذِل المنافقين وتحذر من التأثر بهم قال الله تعالى { بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليما 138 الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزّة لله جميعا 139 } النساء .

---

(1) التحرير والتنوير 56/2-57

(2) التحرير والتنوير 375/2

قال ابن عاشور في تفسيرها :

((ولما كان التظاهر بالإيمان ثم تعقيبه بالكفر ضرباً من التهكم بالإسلام وأهله جيء في جزاء عملهم بوعيد مناسب لتهكمهم بالمسلمين , فجاء به على طريقة التهكم إذ قال (بشر المنافقين) فإن البشارة هي الخبر بما يفرح المخبر به , وليس العذاب كذلك 000 ومجيء صفتهم بطريقة الموصول لإفادة تعليل استحقاقهم العذاب الأليم أي لأنهم اتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين 000 والاستفهام إنكار وتوبيخ 000 وإذا كان المراد بالكافرين اليهود فالاستفهام تهكم بالفريقين 000 وهذا الكلام يفيد التحذير من مخالطتهم بطريق الكناية)) (1) .

المبحث الرابع : الأثر التربوي للمبشَّر به ترغيباً وترهيباً في نفوس المبشرين

ذكر الله عز وجل في كتابه بشارات صريحة للمبشَّرين , وقد تطلق البشارة دون تصريح بها ولا شك أن لكل بشارة أثرها التربوي سواء ذكرت أو لم تذكر , فما ذكر في قوله تعالى { وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً 47 } الأحزاب , قال ابن عاشور في تفسيرها :

((والفضل : العطاء الذي يزيده المعطي زيادة على العطية , فالفضل كناية عن العطية أيضا لأنه لا يكون فضلاً إلا إذا كان زائداً على العطية , والمراد أن لهم ثواب أعمالهم الموعود بها وزيادة من عند ربهم , قال تعالى { للذين أحسنوا الحسنى وزيادة } ووصف كثيراً مستعار للفائق في نوعه , قال ابن عطية : قال لي أبي رضي الله عنه (2) : هذه أرجى آية عندي في كتاب الله لأن الله قد أمر نبيه أن يبشر المؤمنين اللذين بأن لهم عنده فضلاً كبيرا)) (3) ونظير هذه الآية في بيان المبشَّر به قوله تعالى { وبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسنا 2 ماكثين فيه أبدا 3 } الكهف , قال ابن عاشور في تفسيرها ((وقوله { أن لهم أجراً حسنا } متعلق بـ { بشر } بحذف حرف الجر مع { أن } أي بأن لهم أجراً حسنا , وذكر الإيمان والعمل الصالح للإشارة إلى أن استحقاق ذلك الأجر بحصول ذلك الأمرين 000 والمكث : الاستقرار في المكان , شبه ما لهم من اللذات والملائمات بالظرف الذي يستقر فيه حالُهُ للدلالة على أن الأجر الحسن كالمحيط بهم لا يفارقهم طرفة عين فليس قوله { أبداً } بتأكيد لمعنى { ماكثين } بل أفيد بمجموعها الإحاطة والدوام (4) .

---

(1) التحرير والتنوير 234-233/5

(2) هو أبو بكر بن غالب بن عطية الغرناطي المالكي توفي بغرناطة سنة 518 هـ

(3) التحرير والتنوير 57/22

(4) التحرير والتنوير 250/15

وفي تفسيره – رحمه الله- للآيتين السابقتين من اللطائف التربوية في بيان معنى المبشَّر به بما يحفِّز المبشَّر على العمل والحرص على الظفر بالبشارة .

وقد أشار ابن عاشور في تفسير قوله تعالى { وإذا بُشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم 58 يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون 59 } النحل .

إلى معان تربوية نفيسة في قضية اجتماعية تقع وتتكرر في كل زمان حيث قال : ((والتعبير عن الإعلام بازدياد الأنثى بفعل { بُشِّر } في موضعين لأنه كذلك في نفس الأمر إذ ازدياد المولود نعمة على الوالد لما يترقبه من التأنس به ومزاحه والانتفاع بخدمته وإعانته عند الإحتياج إليه , ولما فيه من تكثير نسل القبيلة الموجب عزتها , وآصرة الصهر , ثم إن هذا مع كونه بشارة في نفس الأمر فالتعبير به يفيد تعريضاً بالتهكم بهم إذ يعدون البشارة مصيبة وذلك من تحريفهم الحقائق , والتعريض من أقسام الكناية , والكناية تجامع الحقيقة .

وفعل { ظل } من أفعال الكون أخوات كان التي تدل على إنصاف فاعلها بحالة لازمة 000 واسوداد الوجه : مستعمل في لون وجه الكئيب إذ ترهقه غبرة فشبهت بالسواد مبالغة , والكظيم : الغضبان المملوء حنقاً 000 وهذا من جاهليتهم الجهلاء وظلمهم , إذ يعاملون المرأة معاملة من لو كانت ولادة الذكور باختيارها ولماذا لا يخْنق على نفسه إذ يلقح امرأته بأنثى قالت إحدى نسائهم أنشده الأصمعي تذكر بعلها وقد هجرها لأنها تلد البنات :

يغضب إن لم نلد البنينا   وإنما نعطي الذي أُعطينا

والتواري : الإختفاء , مضارع واراه , مشتق من الوراء وهو جهة الخلف و { من } في قوله تعالى { من سوء ما بشر به } للإبتداء المجازي المفيد معنى التعليل لأنه يقال : فعلت كذا من أجل كذا))(1) .

فنلاحظ من تفسيره – رحمه الله – الإسهاب في وصف الحالة التي عليها بعض الكفار ويبشعها ليحذر منها المؤمنين فلا يقعوا فيما وقع فيه غيرهم .

---

(1) التحرير والتنوير 184/14-185 .

وفي تفسيره لقوله تعالى { وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم 126 } آل عمران , نكت لطيفة في أثر البشارة على نفوس المبشَّرين فقد قال ((والبشرى اسم لمصدر بشّر كالرجعى والبشر خبر بحصول ما فيه نفع ومسرة للمخبر به فإن الله لما وعدهم بالنصر أيقنوا به فكان في تبيين سببه وهو الإمداد بالملائكة طمأنة لنفوسهم لأن النفوس تركن إلى الصور المألوفة .

والطمأنة والطمأنينة : السكون وعدم الاضطراب واستعيرت هنا ليقين النفس بحصول الأمر تشبيهاً للعلم الثابت بثبات النفس أي عدم اضطرابها 000 وعطف { ولتطمئن } على { بشرى } فكان داخلاً في حيز الاستثناء فيكون استثناء من علل أي ما جعله الله لأجل شيء إلا لأجل أن تطمئن قلوبكم به))(1) .

تم بحمد الله وتوفيقه

---

(1) التحرير والتنوير 78/4

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين الذي وفق وتمم هذا البحث , وكان من نتائجه الآتي :

* حاجة التفسير التربوي إلى إعمال الفكر في تدبر القرآن مع الرجوع إلى التفاسير التي عنيت بالبلاغة واللغة لمزيد من الاستنباط .

* تفسير التحرير والتنوير حقاً إنه مرجع لا يُستغنى عنه .

* التفسير التربوي يفتح آفاقاً واسعةً في مجالات تربية عديدة , تحتاج إلى بحث وأعتبره جزءاً من التفسير الموضوعي .

* ألحظ أن المفسرين المحدثين عُنُوا بلفتات تربوية في كثير من المواضع التفسيرية كما في التحرير والتنوير , وتيسير الكريم الرحمن للسعدي , وتفسير المنار لمحمد رشيد رضا .

* يحتاج الباحث في التفسير التربوي لمزيد من الاطلاع والبحث في الكتب التي اعتنت بالتربية ومصطلحاتها .

* موضوع البشارة في القرآن الكريم من الموضوعات الجديرة بالبحث والتأمل حيث تُعد من أهم مرتكزات الترغيب , ولها تأثيرها العجيب في حفز المبشَّر للعمل والاجتهاد .

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل

فهرس المصادر والمراجع

1- البرهان في علوم القرآن – بدر الدين زركشي - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .

2- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز – محمد بن يعقوب الفيروز آبادي تحقيق محمد النجار – بيروت – المكتبة العلمية .

3- التحرير والتنوير – محمد الطاهر ابن عاشور – الدار التونسية للنشر تونس 1984م .

4- صحيح مسلم – أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري - دار إحياء الكتب العربية – القاهرة 1374هـ / 1955م تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .

5- لسان العرب – محمد بن مكرم ابن منظور .

6- المعجم الفهرس لألفاظ القرآن الكريم – محمد فؤاد عبد الباقي .

7- معجم مقاييس اللغة – أحمد بن فارس تحقيق عبد السلام محمد هارون القاهرة - الخانجي 1402 هـ .

8- النهاية في غريب الأثر – أبو السعادات المبارك محمد الجزري – المكتبة العلمية بيروت 1399 هـ - 1979 م تحقيق طاهر أحمد الزاوي – محمود محمد الطناحي .